مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 31/ 46

نحو النص بين التأصيل والتحديث: مقاربة لسانية نصية لنماذج من الذكر الحكيم

the textual grammar Between the original heritage and The Modernity a textual linguistic approach to some models of "dikr lhakim"

حسن حماني
جامعة مولاي إسماعيل . مكناس / المغرب
Hammani-h@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/01/05 تاريخ القبول: 2020/03/08 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص البحث:

لقد كان لعبد القاهر الجرجاني فضل كبير في دراسة «نحو النص» في مؤلفه دلائل الإعجاز، حيث أدرك بأن النحو لا يقتصر على الجملة، وإنما يتعداها إلى النص، لذلك ركز حديثه عن نظم الكلام وما له من علاقة بعلم النحو. ويتسم «نحو النص» بحداثة منهجه، وعمق رؤيته وإحكام بنائه، وتباين مناهجه، التي ينظر من خلالها إلى النص نظرة شاملة متكاملة، ويتمثل هدفه في المزاوجة بين الموروث العربي الأصيل والراهن الغربي. حيث يتعامل مع الأعمال العلمية، باعتبارها لبنة أساس تحمل إرثا ثقافيا، وبعدا فكريا، ورقيا معرفيا ضمن اهتماماتها لمقاربة الإنتاج النصي، والحكم عليه حكما نصيا جماليا.

المفاهيم المفتاحية: النص، نحو النص، التماسك، الانسجام، الاقتصاد النحوي.

ABSTRACT:

Abd al-Qaher al-Jarjani was a great proponent of the study of the "text" in his book Evidence of Miracles, in which he realized that grammar is not limited to the sentence, but extends to the text. For this reason, he focused on the speech systems and its relation to grammar. The "grammar of the text" is characterized by its modernity, its depth of vision, its construction, and its different approaches, through which the text is considered in a comprehensive and comprehensive view. Its aim is to combine the original Arab heritage with the Western one. He deals with scientific works as the basis that encompasses a cultural heritage, and an intellectual dimension within its interests to approach the textual production. This allows one to make aesthetic judgment.

Key Concepts : the text, grammar of the text, Coherence, harmony, grammatical economy.

مقدمة:

يعد «نحو النص» علما حديث العهد، مستقيا خصوصياته وإجراءاته وآلياته من علوم مختلفة، مقدما تفسيرا موسعا للنص، وما دامت النصوص ترتكز على اللغة، فإن القارئ لا يستطيع أن يتفاعل معها دون مراعاة تأليفها اللغوي الذي تسند وظيفته لـ «نحو النص»

من ثم، تكمن أهمية هذا النحو في وصف ودراسة الأبنية اللغوية، والمزاوجة بين المصادر التراثية الأصيلة، والمصطلحات اللسانية الغربية الحديثة لدراسة النصوص، دراسة بليغة لها قيمة علمية عملية وقوة إنجازية واقعية، تساعده في فهم وإدراك وتفسير هذه النصوص، تفسيرا يمكننا من التأمل في بلاغة تماسكها وجمالية انسجامها، ودقة نظمها، وروعة رونقها.

وإذا كانت الدراسات اللسانية السالفة تهتم بالترابط الجملي، فإن «نحو النص» يهتم بالدراسات النصية، ذات البنية الموحدة، والبعد العميق، والعمق المعرفي والرؤية الواضحة. باعتبار أن الدراسات النحوية السابقة ركيزة أساس، ومنطلق صلب، انطلقت منه الاتجاهات النصية الحديثة، لبناء تصورها للنص. من هنا، فالإشكالات التي تتبادر إلى الذهن هي: هل يمكن اعتبار «نحو النص» استمرارا للنحو العربي التراثي؟، أم أنه ضرب في قواعده ومنهجه وأسسه ومبادئه؟، وهل يمكن القول إن «نحو النص» قد نحت طريقه داخل البيئة العربية في الوقت الراهن؟، وما هي أهميته بالنسبة للنحو العربي؟ وهل أضاف شيئا إلى المكتبة العربية في وقتنا الحاضر؟

إن الإجابة عن هذه الإشكالات تفرض علينا الانطلاق من مجموعة من الدراسات السابقة في الساحة اللغوية والنقدية، منها: "لسانيات النص" لمحمد خطابي، و"في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي" و"نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث" للدكتور عبد الرحمن بودرع، و"الدرس النحوي النصي في كتاب إعجاز القرآن الكريم" لأشرف عبد البديع، و"علم اللغة مقدمة للقارئ العربي" لمحمود السعدان، و«نحو النص» بين الأصالة والحداثة" لأحمد محمد عبد الراضي، و"مفهوم النص دراسة في علوم القرآن" لنصر حامد أبو زيد.

وبناء على ذلك، قسمت المقال إلى خمسة محاور مركزية، ففي المحور الأول ذكر للاختلاف بين «نحو النص» في الموروث العربي» و«نحو النص عند الغربيين»، وناقشت في المحور الثاني الحديث عن التراث العربي و«نحو النص»، وأوردت في المحور الثالث الكلام عن الراهن الغربي و«نحو النص»، وانتقلت بعد ذلك لتوضيح قانون الاقتصاد والاتساع النحوي النصي، وأنهيت المقال بالحديث عن «نحو النص» وآليات التماسك الخارجي.

المحور الأول: نحو النص بين التراث العربي والراهن الغربي

1.1 . مفهوم النص عند العرب

يعد النص نسقا متكاملا، ووحدة بنائية كبرى، وكيانا معرفيا ولغويا متماسكا، ووعاء رحبا للعديد من الجمل والعبارات المترابطة والمنسجمة فيما بينها، وهو سياق يضم العديد من المقامات التي تشكل في مجملها وحدة واحدة، ورؤية واضحة، تكاملية متكاملة الأطراف، يقول في ذلك الباحث عبد الرحمن بودرع: "النص وحدة نحوية دلالية ينتظم عناصرها اتساق نحوي وانسجام فكري موضوعي ومقصد عام وإنجاز كلامي أكبر (Macro – act of speech) تنتظم فيه أفعال الكلام الموجودة فيه كلها. ولكن النص لا يقف عند هذه الحدود؛ فقد دخلت في النظر إلى مفهوم النص مباحث أعلى، تكشف عن بنياته الكبرى"[1].

وما يلاحظ أن النص لا يمكن النظر إليه بكونه "داخلا معزولا عن خارج هو مرجعه. ((الخارج)) هو حضور في النص ينهض به عالما مستقلا. عالما يساعد استقلاله على إقناعنا به أدبيا متميزا ببنيته، بما هو نسق

هذه البنية، هيئتها ونظامها. وعليه، فإن النظر في العلاقات الداخلية في النص ليس مرحلة أولى تليها مرحلة ثانية يتم فيها الربط بين هذه العلاقات، بعد كشفها، وبين ما أسمه ((الخارج)) في النص. بل إن النظر في هذه العلاقات الداخلية هو أيضا، وفي الوقت نفسه، النظر في حضور ((الخارج)) في هذه العلاقات في النص"[2]. أي "أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصا يمكن أن يطلق عليها ((النصية))، وهذا يميزه عما ليس نصا؛ فلكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدة شاملة"[3].

وإذا كان النص وسيلة لغوية رائقة لنقل الأفكار والتصورات، وآلية لتبادل الرؤى، ولتحقيق التواصل والتفاعل والتفاهم بين الباث والمتلقي، بغرض الإقناع والاقتناع، "فإنه يطلق على العملية التعبيرية التي تكون الوحدات اللغوية قوامها"[4]. يقول عوض عباس وآخرون: "ينبغي أن يكون المفهوم الأساس لأي نص أنه وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، فهو ينقل شيئا إلى المخاطب، وهو ليس هدفا في حد ذاته، وإنما هو طريق للخطاب"[5]. وجاء في قول نصر حامد أبو زيد: "إذا كان مفهوم ((النص)) يمثل مفهوما في "علوم القرآن" فهو بالمثل مفهوم محوري في الدراسات الأدبية. إن تغاير المناهج واختلاف التوجهات النقدية في درس النصوص الأدبية ليسا في جوهرهما إلا اختلافا في تحديد ماهية ((النص)) وخصائصه ووظائفه. وليس مفهوم النص مفهوما أساسا في الدراسات الأدبية فحسب، بل صار يعد مفهوما أساسا في العلوم الإنسانية، في الثقافة بشكل عام"[6]. يقول الدكتور طه عبد الرحمان: "كل نص هو بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات"[7].

من ثم، "فالنص النسيج العام الذي يتألف من خيوط متناسقة على هيئة مخصوصة، ويتعدى الجملة باعتباره سلسلة من الجمل يضبطها مبدآن: مبدأ الوحدة ومبدأ الاتساق والتناسق"[8].

21 . مفهوم النص عند الغرب

إذا كان النص في المنظور العربي يتسم بغنى معناه وبتعدد دلالاته، واتساع مفهومه، وذلك يعود لتعدد استعمالاته في حقول معرفية مختلفة، وفي مجالات متباينة، فإنه يعرف غنى دلاليا عند الغربين شبيها بما يعرفه المصطلح عند العرب، لذا فالنص عند بارث "نسيج من الكلمات المنظومة في التأليف، والمنسقة، بحيث تفرض شكلا ثابتا، ووحيدا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا"[9]. وأشار هاليداي ورقية حسن إلى أنه "يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا، حوارا أو مونولوجا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها، من نداء استغاثة حتى مجموع المناقشة الحاصلة، طوال يوم، في لقاء هيئة"[10].

وأشارت جوليا كريستيفا إلى أن النص "جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة، بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيرا إلى بيانات مباشرة، تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها"[11]. وهو تتابع متماسك من علامات لغوية تقوم على أساس النظام اللغوي.

المحور الثاني: التراث العربي ونحو النص

1.2 الجرجاني ونحو النص

لقد كان لعبد القاهر الجرجاني فضل كبير في دراسة «نحو النص» في مؤلفه دلائل الإعجاز، وربما لم يقدم الكتاب أكثر من نظرية لـ «نحو النص»، وكما أدرك بأن النحو لا يقتصر على الجملة، وإنما يتعداها إلى النص، لذلك ركز حديثه عن نظم الكلام وما له من علاقة بعلم النحو. وما يثبت ذلك "أن الإشارات النصية ظلت متناثرة في كتب النحو إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني، حيث جعل من هذه الإشارات نظرية في تناول النص وفهم أسراره، وإدراك خباياه في كتابه الذي لم تستكشف أبعاده بعد على كثرة ما قيل عنه . وهو كتاب دلائل الإعجاز"[12].

يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[13]. يقول أحمد العلوي العبدلاوي: "فنظم القرآن إذن، حسب عبد القاهر الجرجاني هو السر في إعجازه. وإذا كان هذا الإعجاز. كما يقول . نجده في الاستعارات، أو الإخبار بالغيبيات أو الحقائق العلمية، فإن ذلك يوجد في بعض آيات القرآن وليس في مجملها، بينما طريقة النظم والتأليف بين ألفاظه ومعانيه هي السلك الناظم بين آياته جميعا، وبها صار معجزا لبلغاء العرب وفطاحل شعرائهم. وقد استخلص الجرجاني هذه الحقائق انطلاقا من إيمانه العميق بضرورة تجاوز الأحكام الانطباعية التي سادت النقد العربي القديم، والانتقال من التقبل المرتجل إلى التقبل القائم على أصول وقواعد، ومن القراءة المبنية على الحدس والذوق إلى القراءة المبررة بالحجة والدليل"[14].

ويذهب عمر أبو خرمة في هذ الجانب إلى أن عبد القاهر الجرجاني يرى بأن "النص لا يتكون إلا حسب قوانين النحو، ومناهجه، وهو هنا يدرك تماما أن علم النحو، ليس نحو الجملة فقط؛ إذ يرى أن نحو الجملة جزء يسير من علم النحو"[15].

يتضح أن اهتمام عبد القاهر الجرجاني بـ «نحو النص» يرتكز أساسا على الاهتمام بوجوه الإسناد وضبط مواضع الفصل والوصل، والشرط وجوابه، ويستعملها على الصحة وما ينبغي لها، لأن ذلك في منظوره بمثابة آليات يتم اعتمادها في بناء النصوص ووصفها وتفسيرها. ((فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه...، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه))"[16]. يقول محمد خطابي في ذلك: "أما جهدنا نحن فسينصب على محاولة الوصول إلى مجموع المبادئ التي تحكم وصف وتحليل الجرجاني للفصل والوصل باعتباره إحدى التجليات السطحية / العميقة لانسجام الخطاب واتساقه. هذا من أجل بلورة المبادئ العامة والخاصة التي صاغها الجرجاني سواء أتم ذلك بطريقة صريحة أم ضمنية"[17].

ويجدر بالذكر أن الأساس النحوي عند الجرجاني ينبني على مجموع "القواعد والقيود النحوية التي بلورها النحاة من أجل ضبط العطف (كامتناع ذكر الواو بين الوصف والموصوف، أو بين التأكيد والمؤكد، أو امتناع عطف المفرد على المفرد وبين عطف الجملة على الجملة... إلخ) واستثماره لهذه المعطيات قصد مقاربة الفصل والوصل بلاغيا"[18].

22 البقاعي ونحو النص

غني عن البيان، أن الدرر لصاحبه البقاعي شكل نبراسا داخل علم «نحو النص»، وذلك بما قدمه من أفكار وتصورات، أغنت الثقافة العربية عموما، وعلم لغة النص بشكل خاص، أفكار قل نظيرها في الكتب السابقة عليه في الساحة اللغوية النقدية. إنه ذلك المعدن الصافي الذي ربط بين سور القرآن ومقاطعه وآياته، بما يتوفر عليه من آليات التماسك والانسجام. يقول عمر أبو خرمة: "فلا أن كتابا سبقه، في مضمار الربط بين الجمل، في المتتالية النصية، سواء على مستوى ربط السورة الواحدة، أو ربط السور المتتالية، والمتباعدة، حتى أنه ربط الناس بالفاتحة، وما بعدها، ولم يأل جهدا في ربط ما بينهما، وهذا ينفي دعوى سعيد حوى، في أنه غير مسبوق، وأن البقاعي قد جهد لربط السورة الواحدة، دون ربط السور ببعضها"[19]؛ إذ يقول البقاعي في حديثه في سورة الناس: "ومقصود هذه السورة، معلول لمقصود الفاتحة، الذي هو المراقبة، وهي شاملة لجميع علوم القرآن، التي هي مصادقة الله ومعاداة الشيطان ببراعة الختام... فقد اتصل الآخر بالأول، اتصال العلة بالمعلول، والدليل بالمدلول، والمثل بالممثول"[20].

المحور الثالث: الراهن الغربي ونحو النص

إن للغربين نظرة رحبة لـ «نحو النص»، ذلك أنهم ركزوا في تصورهم على النظام النصي الذي يساهم بشكل كبير في خلق بنية نصة شاملة ذات رؤية دلالية عميقة، تسند مهمة الكشف عنها لـ «نحو النص»، على أساس أنه "علم بمبادئ وأصول يعرف بها تماسك النص انسجاما واتساقا، وغرضه معرفة مدى تحقيق نصية النص"[21]. وهو علم يهتم، حسب هاليداي ورقية حسن، بدراسة تماسك النص وانسجامه، وتحقيق نصيته، "ويرى الباحثان أن النص يكتسب نصيته، من وجود تلك الاعتبارات؛ إذ هما يميزان الخطاب من النص، بمعنى: أنهما يؤمنان بأن نصية النص قضية داخلية، وظيفة المتلقي أمامها الحكم بوجودها، أو عدمه؛ إذ قدم بحثهما على موازاة بين الاتساق في النص، والخصائص التي تجعل من عينة لغوية ما نصا"[22]. "فلكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة"[23].

من ثم، "تتعالق الوحدات المبنية لتشكل نصا. كل الوحدات النحوية: الجمل والأقوال، والمركبات، والكلمات متسقة داخليا، لأنها ببساطة، مبنية(...)إلا أن الاتساق يتوقف، داخل نص ما، على شيء آخر غير البنية، بمعنى أن هناك علاقات معينة، إذا توافرت في نص ما، تجعل أجزاءه متآخذة مشكلة بذلك كلا موحدا. تعد طبيعة هذه العلاقات دلالية، وهي خصائص تميز النص باعتباره كذلك، مما يجعله وحدة دلالية"[24].

وهو ما وضحه خطابي بقوله: "يذهب ديك إلى أن النظرية اللسانية((تتعامل مع أنساق اللغة الطبيعية، أي مع بنياتها الفعلية والممكنة، ومع تطورها التاريخي واختلافها الثقافي ووظيفتها الاجتماعية وأساسها المعرفي)).وتعتبر هذه الأنساق قواعد متواضعا عليها تحدد السلوك اللغوي كما يتجلى في استعمال أقوال لغوية في مقامات تواصلية"[25].

يشير نص ديك إلى أمرين اثنين مهمين في «نحو النص»: أولهما: أن نحوه ينظر إلى النص من حيث بنيته الشاملة الموحدة، وثانيهما: كون النحو ينظر إلى النص باعتباره سياقا عاما لسياقات مختلفة. وهو ما يساعد المتلقي على فهمه وتفسيره.

المحور الرابع: قانون الاقتصاد النحوي النصي

يرتكز قانون الاقتصاد اللغوي النحوي على ضبط النص ومكوناته، ويتم ذلك من خلال تقليص وحداته، وجمله، وفقراته، بواسطة آليات لسانية نحوية، هدفها اختزال النص، وشد أجزائه، والتحكم في مكوناته، وجعلها خاضعة لديناميته، فهي تنقل النص إلى القراء بأقل وحدات ممكنة، وبأوجه متباينة، إنها تكسبه شحنة دلالية واسعة. وهذه الآليات يمكن حصرها في ثلاث: "الحذف"، و"الإضمار"، و"الترميز":

1.4 الحذف:

يعد الحذف آلية أساس من آليات السبك، وقضية مهمة من القضايا التي شهدها الدرس النحوي النصي، وهو يختزل العبارات، ويقظ في ذهن المتلقي شحنة دلالية، تحثه على البحث في المقصود من النصوص. يقول عبد القاهر الجرجاني: "هو باب لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة؛ وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[26]. وقد ورد عن بن جني، من خلال قوله: "قد حذفت العرب الجملة أو المفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[27]. يقول محمد خطابي نقلا عن هاليداي ورقية حسن، ما معناه أن الحذف "علاقة داخل النص، وفي معظم الأمثلة يوجد العنصر المفترض في النص السابق.

وهذا الأمر يعني أن الحذف عادة علاقة قبلية"[28]. وإذا صدقنا بهذا الطرح لمصطلح الحذف، فإننا نرى بأن "الحذف كعلاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا بكون الأول "استبدالا بالصفر"، أي أن علاقة الاستبدال تترك أثرا، وأثرها هو وجود أحد عناصر الاستبدال، بينما علاقة الحذف لا تخلف أثرا، ولهذا فإن المستبدل يبقى مؤشرا يسترشد به القارئ للبحث عن العنصر المفترض، مما يمكنه من ملء الفراغ الذي يخلقه الاستبدال، بينما الأمر على خلاف هذا في الحذف، إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء، ومن ثم، نجد في الجملة الثانية فراغا بنيويا يهتدي القارئ إلى ملئه اعتمادا على ما ورد في الجملة الأولى أو النص السابق"[29].

وإذا أخذنا الوحدة الأولى من وحدات نص ((المؤمنون))، فسنجدها مليئة بهذا النمط من الآليات النصية، التي تصبو نحو اختزال النص واختصاره، وجعله أكثر فاعلية، إنه علاقة معنوية بين المحذوف وأثره. حيث يترك المحذوف أثرا يدل عليه السياق اللغوي السابق. يقول تعالى: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا

آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [30]. وجاء في قوله أيضا: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُومِنِينَ} [31].

فقد حذف اسم (سورة) من الآية الكريمة(1)، وفعل (يقولون) في الآية (47) استغناء بحرف الترابط النصي (الواو العاطفة)، في حين أن أصل النص الأول (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَسُورَةٌ فَرَضْنَاهَا وَ سُورَةٌ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ...)، وهو حذف اسمي جوازي، وأصل الثاني (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَيقولون أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى...)، وهذا حذف فعلي جوازي حيث يمنحان النص رونقا جماليا وانسجاما تاما، واختزالا دقيقا، وكما يمنحانه نصية رائقة، وتعددا دلاليا، وبعدا معرفيا تداوليا، وإعجازا علميا.

24 الإحالة والإضمار ووظيفة الربط

الإضمار عملية تتم داخل النص، إنه يقوم بدور فعال في تماسك النص وانسجامه، وهو "وسيلة من وسائل الفقرة في الاقتصاد، يقوم على مبدأ الاستبدال؛ أي استبدال عنصر بآخر، بحيث يكون العنصر البديل، عنصرا عاما، يمكن انطباقه على العنصر المحدد، في الفقرة سابقا، أو لاحقا، أو حال في الفقرة منطقا بأن يكون ملازما من ملازمات عنصر فيه، فالأول هو ما عبر النحاة الأوائل عنه بالأصل في الضمير العائد، والثاني ما عبروا عنه بالفرع أو الشاذ، وهو الضمير العائد على متأخر، وعبر عنهما النصيون بالإحالة القبلية، والبعدية. أما الثالث فهو ما يمكن أن يطلق عليه اسم الضمير المجهول (الشأن) والمستتر، ويعيدهما الفريقان: النحاة والنصيون، على العالم، باختلاف العبارة، بينما بالنسبة لضمير الشأن؛ فبعضهم يراه القرينة الحالية، وبعضهم يراه المفسر، وكلاهما يرى أنه عائد على متأخر أو إحالة بعدية"[32]. ويشير الدكتور عبد الرحمن بودرع إلى أنه من آليات القرآن الرابطة لأجزاء النص الضمير الذي من "وظائفه في اللغة العربية الاختصار، لأنه يقوم مقام الظاهر ويغني عن تكراره، ومن وظائفه الربط ووصل الجمل بعضها ببعض، ومن وظائفه أيضا الإحالة على سابق؛ وهي عوده على متقدم بما يغني عن ذكره وبما يربط آخر الكلام بأوله"[33].

يقول عمر خرمة: "إن الإضمار ينطوي على نوع من الإحالة، ولا ينفي البحث أن الحذف الحاصل من استتار الضمير، يحمل ذات القيمة الإحالية، ولكنه يعد الإحالة استراتيجية عقلية، يستند إليها الناص حين يقوم بعملية الاقتصاد في الفقرة، فالاقتصاد حادث بالإضمار وحده، دون الإحالة؛ ويقوم الناص بالإضمار عندما يطمئن إلى قدرة المتلقي، على فهم العنصر المختصر"[34]، وتنقسم الضمائر حسب هاليداي ورقية حسن إلى "وجودية مثل: أنا، أنت، نحن، هو، هم، هن...الخ، وإلى ضمائر ملكية مثل: كتابي، كتابهم، كتابه، كتابنا... إلخ[35].

ومن هنا، لابد للضمير من مرجع يعود إليه، ويكون المرجع إما ملفوظا به سابقا مطابقا له، نحو قوله تعالى: { وَلَقَدَ ارْسَلْنَا نُوحاً الَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ الَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [36]. فالضمير في (قومه) عائد على نوح، وقد ورد في هذا الجناب من باب الاختزال والاختصار، وربط السابق باللاحق، كما يمكن أن يكون متضمنا له، نحو قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ*الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[37]. حيث الفعل (يَرِثُونَ) يكون متضمنا للاسم المرجع وهو (الوارثون)، أو نجده دالا بالالتزام، يقول سبحانه: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [38]. المقصود من ضمير (أسكناه) هو الماء،

فالإسكان يدل عليه التزاما، أو متأخرا لفظا لا رتبة، كما هو في قوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ* بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ}[39]. فالضمير في (أخاه) إحالة على هارون. وورود في هذا المكان ضرب من الاختزال، ونوع من التماسك الذي يحقق سياق النص.

يقول الدكتور عبد الرحمن بودرع: "والأصل في الضمير عوده على أقرب مذكور، نحو: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيءٍ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [40]، فلكي يعود الضمير على أقرب مذكور في الآية أخر المفعول الأول وهو الشياطين، ليعود الضمير على أقرب مذكور في الآية، ليعود الضمير عليه لقربه، أما إن كان مرجع الضمير هو المضاف عاد عليه الضمير وإن حال بينهما المضاف إليه، نحو قوله تعالى: { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}"[41] [42].

وأضاف قائلا: "والأصل في الضمائر أيضا توافقها في المرجع حذر التشتيت، نحو قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً اخْرَى * إِذَ اوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي * وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[43]، فالضمائر كلها راجعة إلى موسى، ولا يصح أن يرجع بعضها إلى موسى وبعضها إلى التابوت لما في ذلك من هجنة التشتيت وتنافر النظم"[44].

3.4 الترميز:

يعد الترميز ضربا من الاختصار والاختزال، وهو نوع من الاستغناء عن مجموعة من التراكيب، "فلو قلنا: ما قام زيد. فقد أغنت (ما) عن (أنفي) وهي جملة من فعل وفاعل"[45]؛ "فالترميز من وجهة نظر البحث: هو الوضع الذي يحل به عنصر لغوي محل عبارة لغوية: مفردة أو تركيب، مع أنه . أي العنصر الجديد . لا يدل عليها بالوضع، كدلالة الحرف الواحد من حروف الهجاء، على علاقة لم تذكر في النص. فكان وضع هذا العنصر: الحرف الواحد مثلا، دالا على وجود تلك العلاقة، فعندما نجد في مواضع محددة الواو، فإننا نفهم أن هذا الحرف ليس مجرد حرف هجاء فقط، بل هو رامزة تنحل في الذهن؛ لتدلك على معنى أعطف على ما سبق أو حال مما سبق"[46]. من ثم، فإن آليات الترميز يمكن أن تنقسم إلى ما يلي:

أ . آلية "العطف":

يعد "العطف" آلية جمالية رائقة، تقوم على التوسيع في فقر النص، وهي في الوقت نفسه وسيلة من وسائل الفقر في الاقتصاد، لما تقوم به من دور نموذجي في عملية اختزال العبارات، كما تقوم به من جهة أخرى بوظيفة تسمح بالاتساع في فقر النص. يقول خطابي: "يشير الزمخشري، أثناء تفسيره للآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة، إلى أن قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [47] يوجب طرح سؤال مفاده على ما عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه...))[48]. وأضاف : "إن أمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضا على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك"[49].

من ثم، "فالعطف من جهة وظيفته في الفقرة يسمح لها بالاتساع؛ أي أنه يسمح لها بأن تكون علاقة جديدة: جملة أو عبارة أو مفردة، بحيث يلتفت إلى ارتباطه بالعناصر السابقة. والعطف من جهة شكله وبنائه، ما هو إلا حرف يرمز بالاتفاق إلى أن الناص أراد العطف؛ أي أنه أراد أن يلفت المتلقي إلى إشراك التركيب الحالي مع سابقه في الحكم، فهو من هذه الجهة فقط، داخل في الاقتصاد؛ إذ أطلق حرفا لا يدل على معنى كالواو مثلا، ففهم منه معنى أعطف وأشرك في الحكم"[50].

يقول الدكتور عبد الرحمن بودرع: "فالتأليف بين الأجزاء حتى تتعالق وتتعانق مطلب كبير يستلزم مهارة وحذقا ولطف حس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلا أو تكميلا، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم أو يتبوأ موقعا وسطا؟ ثم يحتاج مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها: بالإسناد أو التعليق أو العطف أو بغيرها؟ هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء نفسها، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى وأنها نقية من الحشو قليلة الاستطراد وأن أطرافها وأوساطها تستوي ترامبها إلى الغرض"[51].

والعطف نوع من أنواع الوصل الذي يشير إلى الطريقة المعتمدة في الربط بين السابق واللاحق. يقول محمد خطابي: "فإذا كانت وظيفة هذه الأنواع المختلفة من الوصل متماثلة (نقصد بالوظيفة هنا الربط بين المتواليات المشكلة للنص) فإن معانيها داخل النص مختلفة، فقد يعني الوصل تارة معلومات مضافة إلى معلومات سابقة أو معلومات مغايرة للسابقة أو معلومات (نتيجة) مترتبة عن السابقة (السبب)، إلى غير ذلك من المعاني. ولأن وظيفة الوصل هي تقوية الأسباب بين الجمل وجعل المتواليات مترابطة متماسكة فإنه لا محالة يعتبر علاقة اتساق أساسية في النص[52].

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ~و أَوْ مَا مَلَكَتَ ايْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[53].

من خلال قراءتنا للنص يتبين بأن الواو العاطفة الرامزة لم ترد عبثا في هذا السياق، وإنما جاءت لتقوم بدور فعال يتجلى في التماسك بين مكونات النص وعناصره، الشيء الذي جعله مصوغا صياغة مترابطة منسجمة الأطراف، مما يوحي إلى ترابط معانيه التي تكاد تحدثنا عن خصال المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، التي منحتهم ميراث الفردوس الأعلى في الجنان.

ب . الشرط:

يعد الشرط من الآليات النحوية النصية التي تحقق تماسكا قويا بين مكونات النص وعناصره اللغوية، كما تمنحه اتساعا، من حيث ربط الجمل بعضها ببعض، وضيقا من خلال العلاقات المعنوية المشكلة له يقول فان ديك: "إن المهمة الأساسية للروابط هو التعبير عن العلاقات بين الأحداث، وقد تكون هذه العلاقات مفككة الربط كالحال في الوصل والفصل. إلا أنه يجوز أن تكون أيضا تلك العلاقات ذات قوة متينة على معنى

أن الأحداث يمكن أن تكون متعينة أو مشروطة بعضها ببعض. وينبغي أن تسمى هذه الفئة الشاملة لمختلف أنواع الروابط مما يعبر عنه باقتران تبعية العلاقات بين القضايا والأحداث بلفظ القضايا المتشارطة"[54].

يقول محمد خطابي: "كان هذا هو الإجراء الأول، أما الثاني وهو قياس العطف على الشرط، فنجده في قوله: ((ينبغي أن يجعل ما يصنع في الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلا يعتبر به)). مثال ذلك قوله تعالى: { وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً او اثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}[55] .فالشرط هنا في الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها، لا في كل واحدة على الانفراد، ((لأنا إن قلنا: إنه في كل واحدة منهما على الانفراد جعلناهما شرطين، وإذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين، وليس معنا إلا جزاء واحدا)) هذا من حيث القرينة النحوية، أما المعنوية فنحن نعلم ((أن الجزاء الذي هو احتمال البهتان والإثم المبين أمر يتعلق إيجابه بمجموع ما حصل من الجملتين، ...))"[56].

ويقول عمر أبو خرمة: "يتجه حديثنا هنا نحو أداة الشرط ذاتها، لا في تعليق الشرط بالجزاء، باعتبار أن العملية، عملية توسيع للجملة، بربطها بجملة تالية لها، بحيث تكون الجملتان تركيبا جديدا متسعا. فأداة الشرط اسما أو حرفا ما هي إلا رمز لغوي يدل على استغناء الفقرة عن تركيب لغوي كامل من الفعل والفاعل عادة ومتعلقاته، من مثل (إذا) التي تدل على معنى أشترط مستقبلا، أو (إذ) الظرفية التي تتعلق بالمضي، ..."[57]. يقول الحق سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ~و إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ* وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}[58].

يتضح من خلال الآيتين الكريمتين بأن آلية الشرط لم تعد كما كانت في الدراسات السالفة، وفي الأبحاث النحوية السابقة مبينة للشرط وجوابه، لكنها أصبحت أكثر مدلولية داخل «نحو النص»، إنها تقوم على توسيع النص من جهة، وذلك بالربط المحكم بين مكوناته ومفاهيمه ومن جهة أخرى فإن دورها يتجلى في الربط بين القضايا المشكلة له. لذلك نجد الآيتين في ترابط قوي وانسجام تام بينهما، وبين مقتضيات كل آية. وهو يقدم خدمة جليلة لفهم مضامين النص وتصوراته، علها تفيدنا في فهم المحتوى العام للسور، وخاصة أننا نعلم أن إدراك النصوص في ظل هذا المنهج، يتم من خلال وحدة عامة شمولية للنص. وبناء على ذلك،نرى الشرط في الآيتين تم بين معطوفين، وفي ذلك إشارة إلى الترابط بين الآليتين السابقة(العطف) واللاحقة (الشرط).

المحور الخامس: نحو النص وآليات التماسك الخارجي

أ . مبدأ الابتداء الحر:

من الواضح أن مبدأ الابتداء الحر من بين المبادئ النحوية النصية التي ساهمت بشكل واضح في ترابط النص، وشد فقراته بعضها إلى جوار بعض، لأنه بمثابة آلية يتوسل بها النص لتحقيق انسجامه وإيصال رسائله إلى المتلقي بكل أريحية، ولاسيما أن القرآن العظيم قد بني في كثير من سوره على هذا المبدأ المهم، والذي لولاه لما غاب التماسك والانسجام بين معظم آي القرآن.

فإذا رجعنا إلى كتاب الله نجده يقول: {الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}[59]. ويقول في سورة آل عمران:{الم اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }[60]، وجاء في سورة الأعراف:{المص، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[61]، وورد في سورة يوسف: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}[62]، ويقول تعالى في سورة هود: { الَر كِتَابٌ احْكِمَتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[63] ....

بعد استقرائنا للآيات السالفة يتضح أنها آيات غير عادية، لها خصوصيات تسمها، ومضامين وقضايا تندرج فيها وآليات تتقدمها. وهي آليات نصية انفرد بها كلام الله عن غيره من كلام العرب، وهذا سر من أسرار الإعجاز العلمي فيه. وكما أنها غير داخلة في علاقة نحوية مع ما يليها، لكن على الرغم من ذلك فهي تحقق ترابطا قويا وتشكل حبلا متينا في ضم اللاحق بالسابق، وهي حروف الهجاء المتقطعة، (الم) و(المص) و(الر)....

يقول عمر أبو خرمة: "يبتدئ النص القرآني في سورة البقرة بمجموعة حروف هجاء مقطعة {الم} وهي غير داخلة في أي علاقة نحوية مع ما يليها من الجمل، وغير مشكلة في ذاتها لجملة نحوية، إلا إذا عددنا الدلالة المتحصلة في الذهن [هذه ألف، هذه لام، هذه ميم] فتكون النسبة المتحصلة من التركيب علاقة حمل، قائمة بين المسند إليه ...أي ليس كل حرف جملة بل مجموع الحروف أخبار لمبتدأ واحد محذوف مفهوم من السياق الكلامي العام. وعلى كلا التصورين لأصل التركيب في هذه الحروف المقطعة لا يمكن استنباط معنى منها؛ لأن أحد ركني التركيب لا يحمل معنى"[64].

وأضاف في السياق نفسه: "فجعل البحث هذه الحروف المقطعة المكونة لفواتح السور، ومنها هذه السورة، مجرد بناء لغوي حر؛ أي اختيار من الناص لكيفية البداية في النص. وهذا هو المبدأ الأول الذي يتحكم في النص دلالة"[65]، يقول في ذلك عمر أبو خرمة: "هذا هو المبدأ الأول الذي يتحكم في النص دلالة، ويربط الفقرة صفر(الحروف المقطعة) بالفقرة الأولى التي تبدأ ب(ذلك الكتاب). وندرك هنا تماما أن عدم القدرة على الوصول إلى معنى من خلال هذا المبدأ، لا يضعف من أثره في الوصول إلى الدلالة الكلية للنص؛ إذ يعود فقد المعنى هنا مع وجود الدلالة الكلية إلى عدم احتواء الحروف المقطعة ذاتها على معنى"[66]. وهو الذي يربط بين الفقرة والفقرة التي تليها حتى يكون الكلام كلاما نحويا دلاليا مترابطا في جميع أجزائه، وهكذا يمكننا الوصول إلى دلالاته القرآنية وإعجازه العلمي.

ب . مبدأ التبادر:

إن مبدأ التبادر مبدأ يرتبط ارتباطا وثيقا بالمبدأ السالف، بخاصة أن الأول بمثابة البوابة الرسمية للنص، ولا يمكننا أن نلج نصا من النصوص إلا وأن نستحضره في دراستنا ومقاربتنا وفهمنا له، لذا فإن بناء أي نص كيفما كان نمطه وشكله ونوعه يفرض على كل باث أن ينطلق من المبدأ الحر للنص، أي أن المبدع حر في اختيار بوابة النص، أو بداية النص، هذه البداية التي تلفت الانتباه بصيغتها وأسلوبها الجمالي، لأنها بمثابة عتبة له.

في حين أن التبادر يشير إلى أن الكاتب مقيد ببداية النص، لأنها تصبح إطارا عاما للنص، يقول عمر أبو خرمة: "إن المبدأ الثاني الحاكم للفقرات في النص فهو مبدأ التبادر، وهذا المبدأ لا يقوم في الذهن، إلا بعد

الإيمان بالمبدأ الأول (البدء الحر)؛ لأن متلقي النص لا يعدم أن يقول ما الذي دفع الناص لاختيار هذا قبل ذاك من البداية؟ فيقال له جوابا: إنه مبدأ البدء الحر؛ بمعنى أن الناص حر فيما يختاره ابتداء، وهو بعد ذلك مقيد بما بدأ به، لا يعارضه ولا يناقضه ولا يفقده ألقه"[67].

ومن الآليات النصية للتبادر التضاد، الذي يقوم على ذكر الأشياء ونقيضها، مما يقربنا من المضمون الإجمالي للنص، يقول عمر أبو خرمة: "يعمل مبدأ التبادر في النص، وفق ثلاثة وسائل، من بينها: قاعدة التضاد، ويعمل التضاد من خلال المنطق العقلي؛ إذ إن ذكر أي شيء يستدعي في الذهن نقيضه، إن وجد. فلو قلنا على سبيل المثال (ليل) فإن هذا اللفظ يستدعي لفهمه ملازمة نقيضه (النهار)؛ إذ لا يعقل أن يتبادر الليل إلى الذهن دون تصور نقيضه النهار..."[68]. مما يبين أهمية التقابل بالضاد ودوره في إبراز المعنى.

يقول أحمد العلوي العبدلاوي: "يقصد في اللغة بالضد، المخالف، أو النقيض، وضد الشيء عند البلاغيين والنقاد مطابقه، وقد درس هذا المقوم الأسلوبي ضمن علم البديع عند ابن المعتز طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد"[69]. ويرى قدامة بن جعفر في السياق نفسه "أن التضاد من نعوت المعاني ويسميه التكافؤ، في حين أن عبد القاهر الجرجاني يسميه التطبيق وهو عنده مقابلة الشيء بضده، وابن الأثير يسميه المطابقة، وتعني عنده الجمع بين الشيء وضده، كالسواد والبياض والليل والنهار، وهذا النوع عند السجلماسي هو الملقب بإيراد النقيض. أما صاحب الطراز فيرى أن كل هذه الأسماء السابقة التضاد والتكافؤ، والطباق ليست سوى دوال لمدلول واحد، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام"[70].

وغني عن البيان، أن آلية التضاد لم تعد فارغة من المحتوى كما كانت في الدراسات السابقة، وإنما أصبح لها دور أساس في تحقيق الانسجام والتماسك، وذلك لمطابقتها بين النقيضين في النص الواحد، مما يجعله يحقق جمالية وإمتاعا للمتلقي، ويجسد في الوقت نفسه ترابطا بين معاني النص.

يقول جمال بندحمان: "تحقق انسجام القصيدة بالترادف والمشابهة، لكنه تحقق بالتضاد كذلك الذي أنزل الطرفين (الأطراف) منزلة تضايق، إذ ((نجد الضد أقرب خطورا بالبال مع الضد، وهو ما يعني أن ذهن ابن خفاجة مدعو إلى ربط الاستعارة القاعدية: النصر ماء، بما يتضاد معها؛ أي: الهزيمة نار"[71]. "...مما يسمح بخلق تشعب مؤداه: "الماء نار". هذا الجمع بين هويتين متباينتين قد لا يقبل إذا نحن نظرنا إلى سطح الخطاب، لكنه وارد بالتعمق فيه..."[72].

وإذا أخذنا الآية الكريمة، وهي من سورة نوح: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{ [73]، نلحظ أن ذكر (الأرض) يتبارد إلى الذهن نقيضه، وهو (السماء) كما هو وارد في الآية. وإيراده لتيسير فهمنا للجزء الأول من الآية، والذي يتضمن مصطلح (أرض)، إذ لا يعقل أن تتبادر الأرض إلى الذهن دون ذكر للسماء، وإذا كانت الكلمات تعرف بالأضداد، فإن الجمل والنصوص كذلك. وبناء عليه، فإن الآية الكريمة جمعت بين صورتين اثنتين من خلال مبدأ التبادر، وهما صورتان مترابطتان متكاملتان، وفي انسجام تام، متعلقتان بتشرب الأرض للماء، وإقلاع السماء عن تهاطل الأمطار الغزيرة، بعد إغراق الله تعالى للقوم الظالمين.

وجاء في قوله تعالى: { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً اوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[74]، فإذا انطلقنا من الآية نجدها متضمنة لأمرين اثنين، أولهما يستلزم وجود الآخر، فالأول يرتبط باليهود، وأما الآخر فيتعلق بالنصارى، لذا فذكر اليهود يستلزم بالضرورة ذكر النصارى ليستقيم المعنى في الذهن، لأنه يقوم على التقابل بينهما. من ثم، فمبدأ الابتداء الحر هو الذي سمح باختيار اليهود كطرف للثنائية، في حين فرض مبدأ التبادر أن يثني بالنصارى.

من هنا، فإن التبادر كمبدأ قد جمع بين نقيضين: هما رغبة اليهود في دخول الجنة دون النصارى، ورغبة النصارى في دخول الجنة دون اليهود، لكن ذلك يبقى في نظره سبحانه مجرد أماني يتمنونها على الله كاذبة.

خاتمة:

لا ريب أن أي عمل ينطلق من النص يندرج ضمن «نحو النص»، باعتباره نمطا من التحليل يمتد تأثيره إلى ما وراء الجملة، فيصبو إلى توضيح علاقة الجمل بعضها ببعض، وعلاقتها بالسياق في إطار وحدة كبرى. ويهدف «نحو النص» إلى بناء الفعل التواصلي التفاعلي بين القارئ والإنتاج الأدبي، حيث إن المكون التواصلي للنص يحقق مناسبة بين الجمل والعبارات، وبين النصوص ومقاماتها التواصلية. فهو لا يلغي النحو القديم، بل يفيد منه، ومن مكوناته وخصوصياته لبناء تصور عام ورؤية شاملة للنص. من ثم، خلصنا إلى مايلي:

. إن الاستخدام اللغوي للغة يقدم باعتباره مجال بحث مستقل بذاته إلى جانب علم اللغة النظامي.

. إن اللغة لا تتحقق من خلال النصوص، مما يوحي إلى العلاقة الوطيدة الجامعة بين النحو القديم والنحو النصي. إنهما في تكامل معرفي، ولا يمكننا أن نتحدث عن النحو النصي، دون الإشارة إلى النحو العربي القديم. مما يعكس مدى وعي اللغويين والنحاة والبلاغيين القدماء بـ «نحو النص»، وتماسك أجزائه.

. إن كشف المعاني والوصول إلى سياقات الكلام متوقف على معارف النحاة وخبراتهم الواسعة، ورؤاهم التفسيرية العميقة.

. يفرض الاستفادة من خصوصيات «نحو النص» بما لا يلغي خصوصيات النص العربي.

. إن النحو لا يقتصر على الجملة، وإنما يتعداها إلى النص، لذلك ركز عبد القاهر الجرجاني حديثه عن نظم الكلام وما له من علاقة بعلم النحو.

. إن اهتمام عبد القاهر الجرجاني بـ «نحو النص» يرتكز أساسا على الاهتمام بوجوه الإسناد وضبط مواضع الفصل والوصل.

. إن الأساس النحوي عند الجرجاني ينبني على مجموع القواعد والقيود النحوية التي بلورها النحاة من أجل ضبط العطف كامتناع ذكر الواو بين الوصف والموصوف.

. إن الدرر لصاحبه البقاعي شكل نبراسا داخل «نحو النص»، وذلك بما قدمه من أفكار وتصورات، أغنت الثقافة العربية عموما، وعلم لغة النص بشكل خاص.

. يرتكز قانون الاقتصاد اللغوي النحوي على ضبط النص ومكوناته، ويتم ذلك من خلال تقليص وحداته، وجمله، وفقراته، بواسطة آليات لسانية نحوية، هدفها اختزال النص، وشد أجزائه، والتحكم في مكوناته.

الهوامش

[1] بودرع عبد الرحمن، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، ط1، مطبعة الخليج العربي . تطوان . المغرب ، 2014، ص:9.

[2] العيد يمنى: "في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي"، ط4، دار الآداب . بيروت . لبنان، 1999، ص:.22

3 خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . المغرب، 2006، ص:13.

. تشير النصية إلى كل ما يجعل من نص ما نصا، من علاقات داخلية وخارجية، وتتمثل "العلاقات الداخلية في اعتماد الوسائل اللغوية التي تربط أواصر مقطع ما، وتكمن الخارجية في مراعاة المقام". انظر: محمد خطابي: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص:.14

[4] محمد عبد الراضي أحمد: "نحو النص بين الأصالة والحداثة"، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة . مصر، 2008، ص:16.

[5] عباس عوض وأخرون: "لسانيات النص ومعايير الخطاب الصحافي"، دراسة تطبيقية على الصحافة الإماراتية، 2017، مج 18، ص:49.

. تم تقويم المصطلح الآتي: المفهوم الأساسي بالمفهوم الأساس. انظر إلى المتن أعلاه.

[6] حامد أبو زيد نصر: "مفهوم النص في علوم القرآن"، ط7، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . المغرب، 2008، ص:19.

[7] طه عبد الرحمن: "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، ط3، المركز الثقافي، الدار البيضاء . المغرب، 2007، ص:35.

[8] عبد الرحمن بودرع: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث"، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ع154،2013، ص:28.

[9] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد . الأردن، 2004 ص:32. نقلا عن: بارث.

[10] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،ص:13. نقلا عن: هاليداي ورقية حسن: "الانسجام في الانجليزية"، ص:1.

[11] كريستيفا جوليا: "علم النص"، ترجمة فريد الزاهي، ط2، دار توبقال للنشر والتوزيع، 1997، ص:21.

[12] محمد عبد الراضي أحمد: "نحو النص بين الأصالة والحداثة"، ص:137.

إن عمود النظم عند عبد القاهر هو النحو، الذي بدونه يصبح الكلام مشتتا على غير نظام يهتدي به، فغياب التعليق النحوي يؤدي بالضرورة إلى افتقاد الناتج الدلالي. انظر: "آليات الشعرية بين التأصيل والتحديث مقاربة تشريحية لرسائل ابن زيدون(463هـ)، ص:90.

[13] الجرجاني عبد القاهر: "دلائل الإعجاز"، ط1، المكتبة العصرية . بيروت . لبنان، 2002، ص:127.

[14] العلوي العبدلاوي أحمد وآخر: "آليات الشعرية بين التأصيل والتحديث"، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2013، ص:87.

[15] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:43.

[16] الجرجاني عبد القاهر:2004، ص:127.

[17] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:100.

. للإشارة أن "الفصل والوصل" آلية من آليات النص، ومظهر من مظاهر انسجامه، يقول الدكتور عبد الرحمن بودرع: "هذا باب جليل عقد له بدر الدين الزركشي فصلا ضمن علم المناسبات، سماه: ((فصل في اتصال اللفظ، والمعنى على خلافه، ووضع المناسبات))، ووضع له جلال الدين السيوطي بابا في أنواع علوم القرآن، وسماه ((بيان الموصول لفظا المفصول معنى))، وعده نوعا مهما وأصلا كبيرا في الوقف، جديرا بأن يفرد بالتصنيف، وبه يحصل حل إشكالات وكشف معضلات كثيرة. انظر: بودرع عبد الرحمن: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث"، ص:74.

. نقصد بعلم لغة النصي «نحو النص».

[18] المرجع نفسه، ص:74.

[19] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:48/.49

[20] المرجع نفسه ص ن.

[21] أبو زنيد عثمان: "نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية"، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2009، ص:31.

[22] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:83.

[23] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:13.

[24] Halliday, M A K and R.Hasan (1976), Cohesion in English.longman.london, p;10.

[25] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:28.

[26] الجرجاني عبد القاهر:2004، ص:177.

[27] بن جني أبو الفتح عثمان: "الخصائص"، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د ط)، (د ت ن)، ج2، ص:360.

[28] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"، ص:21.

[29] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:21.

[30] سورة النور، الآية رقم:1.

[31] سورة النور، الآية رقم:45.

[32] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:173.

[33] بودرع عبد الرحمن: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث"، ص:85.

[34] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:173.

[35] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"، ص:18.

[36] سورة المؤمنون، الآية رقم:23.

[37] سورة المؤمنون، الآية رقم:11.10.

[38] سورة المؤمنون، الآية رقم:18.

[39] سورة المؤمنون، الآية رقم:46،45.

[40] سورة الأنعام، الآية رقم:113.

[41] سورة إبراهيم، رقم الآية: 36.

[42] عبد الرحمن بودرع: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث"، ص:87.

[43] سورة طه، الآية رقم: 39.36.

[44] عبد الرحمن بودرع: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص:87.

[45] عمر أبو خرمة: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:183.

[46] المرجع نفسه، ص:183.

[47] سورة البقرة، الآية رقم:24.

[48] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:169.

[49] المرجع نفسه، ص:106.

[50] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:184.

[51] بودرع عبد الرحمن: "نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث"، ص:87.

[52] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"، ص:24.

[53] سورة المؤمنون، الآية رقم:11.3.

[54] فان ديك: "النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط1، أفريقيا الشرق، 2000، ص:103.

[55] سورة النساء آية رقم: 111.

[56] خطابي محمد: "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب" ، ص:106.

[57] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:189.

[58] سورة إبراهيم، الآية رقم: 10/9.

[59] سورة البقرة، الآية رقم:1.

[60] سورة آل عمران، الآية رقم:1.

[61] سورة الأعراف، الآية رقم:1.

[62] سورة يونس، الآية رقم:1.

[63] سورة هود، الآية رقم:1.

[64] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:210.

[65] المرجع نفسه، ص،ن.

[66] المرجع نفسه، ص:312.

[67] المرجع نفسه، ص:211.

[68] أبو خرمة عمر: "نحو النص نقد النظرية...وبناء أخرى سورة البقرة نموذجا"، ص:212/211.

[69] العلوي العبدلاوي أحمد وآخر: "آليات الشعرية بين التأصيل والتحديث"، ص:312.

[70] المرجع نفسه، ص،ن.

[71] جمال بن دحمان: "الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري التشعب والانسجام"، ط1، منشورات TOP EDITION، 2009، ص:222./221.

[72] المرجع نفسه، ص:223/222.

[73] سورة هود، الآية رقم:44.

[74] سورة البقرة، الآية رقم:110.